الفصل الأول

أسباب النقل وتطوره

(١) مسببات النقل

لماذا يحتاج الانسان إلى النقل ؟ هذا السؤال العريض قد يحتـاج إلى شرح يتسم ببعض الطول ، وان كانت الاجابة عنه في اختصار شديد هي أن الانسان، وعالم الحيوان عامة يتصف بصفة اساسية هي الحركة المستمرة ، ليس فقط سعياً وراء الغذاء،بل لان الحركة جزء اساسي من تكوينه البيولوجي أيضاً.فالاطراف للحيوان والارجل للانسان اجزاء عضوية حية تتطلب الحركة آلياً ـ وما دامت الحياة تسري في العروق والشرايين ـ إلا إذا اصيب الكائن الحي بمرض يقعده عن الحركة .

والحركة المستمرة عند الانسان قد اصبحت لها دوافع اقتصـــادية جوهرية بحكم الرغبة في الحصول على الغذاء في كل مراحل البشرية الحضارية. ومع التقدم الحضاري لم تعد هناك دوافع اقتصادية مباشرة في تحركات كل فرد ، وان كانت هذه الدوافع الاقتصادية تهيمن على خلفية الحركة بحكم انتماء الفرد لمجموعة بشرية تتحرك من اجل أرض أحسن أو أوسع . وبعبارة أخرى إن حركـــة القوات المتحاربة ، رغم انها قد لا تكون في حد ذاتهـــا بدافع الحصول على مزيد من

الغذاء للمحاربين، فإنها تخضع لخطة معينة في التوسع من اجل مزيد من المكاسب الاقتصادية لصالح القبيلة أو العشيرة أو الدولة .

وهناك أيضاً حركة قد تبدو بعيدة تماماً عن الحركة الاقتصادية، مثل التحرك نحو مكان له قدسية خاصة في صورة الحج ، أو التحرك لمجرد الترويح والنزهة واستكشاف ما يجهله الفرد من أماكن جغرافية أو خلوية. ولكن هذه الحركة في مجموع نتائجها اصبحت تكون نشاطاً اقتصادياً لعدد آخر من الناس يكونون دائماً في نهاية مثل هذه الطرق ؛ يستقبلون هؤلاء الزائرين ويقدمون لهم الخدمات اللازمة من مأوى ومأكل وملهى .

ومجرد الحركة في حد ذاتها، وعلى الاخص بعد تكاثف خطوطها في حضارة العصر الصناعي ، قد اصبحت نشاطاً اقتصادياً يشغل وقت المتخصصين في صناعة وسائط النقل المختلفة من البدائية إلى الحديثة .

وقصارى القول ان الحركة عند الانسان – فرداً أو جماعات ، سلعاً أو أخبار – يسيطر عليها دافع اقتصادي أصيل ، سواء عند الفرد أو الجماعة المتحركة ، أو عند الجماعة المستقبلة لهذه الحركة . وبالرغم من هذا فإنه بالامكان أن نفصل مسببات الحركة إلى أسباب منفصلة لكي يمكن دراستها وتحديد نوع الحركة ، مع الأخذ في الاعتبار بما سبق ذكره من ترابط هذه الأسباب المنفصلة ترابطاً حياً داخل الإطار الاقتصادي .

واسباب النقل متعددة على رأسها : ١ – البحث عن الغذاء عند الجماعات البدائية تكنولوجياً ٢ – التجارة الاقليمية والدولية ، ٣ – اغراض سياسية وعسكرية ٤ – اغراض ترفيهية ودينية ومعنوية . ٥ – الحركة اليومية من المدن الرئيسية واليها .

اولا : البحث عن الغذاء عند الجماعات البدائية تكنولوجيا :

سنتحدث بالتفصيل عن هذا الموضوع فيما بعد . ويمكننا أن نلخص ما سبق قوله في أن الجماعات البشرية القديمة السابقة على الزراعة والرعي ، والجماعات البدائية المعاصرة في غابات افريقيا وصحاريها الجنوبية ، وفي أمازونيا وجنوب الارجنتين وشيلي وتيرادلفويجو ، والقبائل المنتشرة في داخلية النطاق الغابي الكثيف في الملايو وبورنيو والفلبين وغينيا الجديدة (ايريان وبابوا) ، وغالبية سكان مجموعات الجزر الباسيفيكية ، هذه الجماعات كلها تمارس الإنتقال الدائم والموسمي من اجل الحصول على الغذاء، في دوائر محدودة المساحة ، أو تنتقل في قواربها وراء الأسماك في مساحات محدودة أيضاً من مياه الباسيفيك. أما حركة رعاة الإبل والبقر في السفانا وشمال افريقيا والشرق الاوسط وصحاري منغوليا وسنكيانج ، بالاضافة إلى رعاة الرنة في سيبريا، والاسكيمو، صيادي الحيوانات البحرية في شمال امريكا الشمالية فحركتهم موسمية واسعة نسبياً ، ومنتظمة سنوياً .

ويشتمل انتقال هذه الجماعات غالباً على : (ا) في حالة السكن المستقر في أماكن الوفرة النسبية كالواحات أو النطاق الاستوائي أو نطاق السفانا أو جزر الباسيفيك ، يقوم الشبان بالتنقل إلى معسكرات موسم المطر أو الصيد الوفير بينما تظل معظم الجماعة في أماكن سكنها الدائم . (ب) في حالة البداوة الكاملة كما هو الحال عند أقزام وسط افريقيا وبشمن كلهاري في افريقيا الجنوبية ، وإسكيمو الشمال الامريكي ، ولاب شمال إسكندنافيا وجماعات رعي الرنة السيبيرية ، تنتقل الجماعة بكاملها ، كبار السن وصغارهم ، من مكان إلى آخر وراء الصيد أو إلى مناطق معينة تحددها إيكولوجية حيوان الصيد أو حيوان الرعي في العالم القطبي .

ويختلف الإنتقال عند كل من الفئتين . فإن البداوة الكاملة تستدعي نقل كل ما تملكه الجماعة في ترحالها الموسمي، أو ترحالها الدائم بحثاً عن الطعام عند

جامعي الغذاء ، بينما يقتصر التنقل في الحالة الاولى على معسكر الشباب فقط . ويترتب على اختلاف المستوى الحضاري عامة اختلاف في حجم المنقولات. فهي شديدة البساطة عند الجماعين ، بينما تتعدد المنقولات عند الرعـــاة أو الزراع البدائيين لتشمـــل المسكن ومستلزمات الحضارة الاعلى من أوعية متعددة الاغراض ، إلى الطعام المحفوظ ، إلى الملابس والاسلحة وأدوات الانتاج المختلفة. وفي حالة الزراع البدائيين لا ينقل المسكن المبني عادة من الاخشاب ، بل يترك ويبنى غيره في المكان الجديد .

وبناء على ذلك فإن النقل عند الجماعيين لا يستلزم وسيلة نقل خاصة سوى النقل بواسطة الأفراد . وربما كان ذلك سبباً من اسباب قلة منقولاتهم. ويشترك الزراع البدائيون مع الجماعيين في قلة منقولاتهم . أما الرعاة فإنهم يستخدمون حيوان الرعي في النقل ، إما للحمل وإما للجر أو لكليهما معاً .

وبرغم بساطة النقل عند الجماعات البدائية تكنولوجياً ، فقد كانت له آثار بعيدة بالنسبة لتعمير العالم . فإن الحركة المستمرة وراء الغذاء ، سواء كانت للجماعيين أو الرعاة أو الزراع البدائيين ، قد أدت طوال تاريخ الإنسانيـة إلى هجرات الشعوب الواسعة من أماكن محدودة على سطح الأرض ، ليملأوا سطح القارات جميعاً بحثاً عن الغذاء . وهذه الهجرات قد تمت ببطء شديد ، ولا شك انها حدثت نتيجة تزايد العدد السكاني فوق موارد الاقليم الغذائية. وقد حدثت هذه الهجرات إما في صورة سلمية بسيطة وإما نتيجة الطرد بالقوة بواسطة جماعة وافدة غازية . ولكن هجرات الرعاة كانت دائماً سريعة نسبياً نظراً لاستخدام وسائل النقل الحيوانية بالاضافة إلى التنظيم العسكري الذي يكون أساس حياة البداوة .

ثانيا : التجارة الاقليمية والدولية :

ظهرت التجارة مع تقدم المستوى الحضاري والاقتصادي واستقرار النـاس

فيما بعد الثورة الإنتاجية الأولى – الزراعة واستئناس الحيوان – ونمو التخصص الإقليمي والاجتماعي في أشكال الانتاج ، ونوع الحرفة . وهذا التخصص في حد ذاته قد سبب نشوء التبادل التجاري ، وما زال كذلك حتى الآن . وقد ارتبط حجم التبادل التجاري أولا بالاحتياجات المرغوبة ، وثانياً بسعة وسائل النقل .

وفيما يختص بمدى تنوع الاحتياجات فإن ذلك كان محدوداً للغاية خلال معظم تاريخ الإنسان منذ اكتشاف الزراعة . ذلك أن الاكتفاء الذاتي كان هو النمط السائد في معظم مناطق الزراعة والرعي . فقد تأقلم الناس على أنواع الغذاء الذي يصنعه محصولهم الأساسي ، وعلى أشكال الملبس الذي تمده به ظروفهم الإنتاجية والبيئية ، وعلى أشكال الملبس الذي يرتبط بإيكولوجية المكان ، وعلى أنواع الأدوات والأسلحة المرتبطة بتكنولوجية الإنتاج وفيما عدا هذا كان احتياج المترفين إلى بعض المعادن والأحجار النادرة ، وبعض منتجات من الأواني والمنسوجات الفاخرة المنتجة في أقاليم أخرى هو جل مكونات التبادل التجاري القديم . وفضلا عن ذلك ظهرت الحاجة إلى بعض المنتجات الضرورية من خامات مناطق بعيدة كالحديد والنحاس والأخشاب الجيدة وخامات العطور والبخور وغير ذلك .

ولما كانت وسائل النقل محدودة السعة برغم تعدد أشكالها من قوافل الحمير أو البغال أو الخيول أو الأبل أو الإنسان ، إلى عربات الجر والزحافات ، إلى السفن النهرية والسفن البحرية ، فإن التبادل التجاري في معظم فترات التاريخ المكتوب للبشرية ، كان محدود الحجم ينطبق عليه خير انطباق المثل الشائع « ما خف حمله وغلا ثمنه » .

أما التجارة فيما بعد العصر الصناعي فقد تغيرت صورتها تغيراً جذرياً عما كانت عليه من قبل . فإن الاحتياجات البشرية من أجل الصناعة والاستهلاك قد توسعت بصورة مذهلة ، بحيث شملت كل أشكال الإنتاج من الغذاء إلى

الكماليات بين ساكني المدن ، بينما تتحدد السلع المعروضة في الأسواق الريفية إلى أنواع قليلة من السلع الغذائية مقابل كثير من السلع المصنعة . وكذلك أدى إنقسام العالم إلى متقدم صناعي ومتخلف أو نامٍ ينتج الخامات بصفه أساسية ، إلى نمط عالمي محدد في التجارة، فالسفن المتجهة إلى دول الشمال الصناعية تحمل خامات زراعية ومعدنية ، والسفن المتجهة إلى الدول المدارية والجنوبية تحمل سلعاً مصنعة ، بالإضافة إلى بعض الأغذية الأساسيـة كطحين القمح أو الذرة، ومنتجات الوقود والطاقة المكررة .

وقد تبع ذلك أن التجارة الدولية في عصرنا الراهن تحتكر القدر الأعظم من حركة النقل العالمية . وبناء على هذا زادت حمولة وسائل النقل زيادة هائلة ، سواء كان ذلك في القطارات أو الشاحنات أو السفن أو الطائرات . وما زالت سعة وسائل النقل في زيادة إلى مدى لا نستطيع التنبؤ به .

وخلاصة القول أن التجارة والنقل هما في كل الأوقات عبارة عن وحدة وظيفية واحدة ذات شقين .

ويمكننا أن نشير في هذا المجال أيضاً إلى أن التوسع التجاري العالمي كان واحداً من أهم الأسباب في الكشوف الجغرافية الكبرى ،وفي بناء الامبراطوريات الإستعمارية الكبرى ، وفي الإستيطان الحديث لقارات العـالم الجديد . وبهذا يشترك البحث عن الغذاء واتساع النشاط التجاري معاً في تعمير العالم بواسطـة الهجرات الإستيطانية القديمة والحديثة .

ثالثا : الأغراض السياسية والعسكرية .

بالرغم من أن الأسس الجوهرية في النقل ووسائله وطرقه تقاس على المعيار الإقتصادي ومدى عائد هذه الطرق ووسائل النقل ، إلا اننا نلاحظ أن بعض أشكال النقل تبدو غير اقتصادية بالمعنى المفهوم . فهنـاك طرق تمد إلى أقاليم